التيار الوطني الشيعي

احمد سعداوي

نشرت مواقعُ تابعةٌ للتيار الصدري صورةً لتوقيع مقتدى الصدر تحت عبارة بخطّ يده «التيّار الوطني الشيعي»، من دون مزيد من توضيحات، وسرعان ما اشتعلت مواقع التواصل في العراق بتعليقات وتغريدات (وحتى مقالات) في محاولة لتحليل الصورة، التي فهمت عموماً أنّها إعلان عن عودة النشاط السياسي للتيار الصدري. شرّقت التعليقات المؤيدة والمعترضة وغرّبت، وبعضها سخرت من اجتماع الوصف المذهبي مع الوطني. ولكن من يحاول فهم المنطق الداخلي للأشياء، سيعرف أنّه في حال كان هذا المسمّى الجديد إعلان عودة النشاط السياسي للصدر أو التجهيز للانتخابات النيابية المقبلة، فإنّ المُسمّيات لا تغيّر بشكلٍ حادٍّ من التركيبة الداخلية للتيارات السياسية الموجودة، ومنها التيّار الصدري، ولا تشي التسمية الجديدة بانخلافٍ في توجّهات هذا التيّار الأساسية والمعروفة. هل هناك طرف سياسي في العراق لا يدين بالولاء، لدولةٍ خارجية أو على الأقل لا يتأثر بضغوطها؟ لا يمكن تأكيد ذلك، ولكن هناك أطرافاً «تعلن» هذا الولاء والتأييد بشكل صريح، وفخ ّ إحياناً، ولا تحاول التغطية عليه. وما بين الحدّين (الرفض والولاء) هناك مساحة ضبابية تتقاطع فيها أشكال مختلفة من الولاء والتخادم مع دول عديدة، أبرزها إيران وأميركا. بشكل عام، قد يفسّر الفاعل السياسي العراقي اليوم أنّ «الوطنية» تعني الاعتراف بالظروف الواقعية التي تحيط بالعراق، وأنّ عليه ألّا يدفع إلى التصادم مع الدول المؤثرة، وأن يحاول العمل معها في مساحة «المصالح المشتركة»، مع التفكير بتلك الاستراتيجيات التي تخفّف بالتدريج من الاعتماد على دولةٍ بعينها من دون أخرى، في الأمن والاقتصاد ودعم النظام السياسي.

ويستقاطع هذا كلّه، بالتأكيد، مع مبدأ تسخير مصالح الدولة ومقدراتها للحاجات الأمنية والاقتصادية لدولة أخرى، وتلقّي الأوامر من هذه الدولة، والخضوع بشكل كامل لتصوّرها الخاص عن إدارة الصراع الإقليمي والدولي الذي يُلبّي مصالحها هي لا مصالح الدول الخاضعة لها. يتقاطع هذا التصور الراغماتي للوطنية مع المحمولات الأيديولوجية والعقائدية لغالبية التيّارات السياسية الشيعية، وإن صحّ القول إنّ غالبية هذه التيّارات لم تنفّذ تصوراتها العقائدية في سلوكها السياسي على مدى العشرين سنة الماضية، واتخذت هذه التصورات مُجرّد مظلّة وغطاء لإدارة مصالحها الضيّقة، فإنّها تبقى تصورات حاكمة على الفضاء العام، الاجتماعي والسياسي، وتساهم في تضليل الوعي العام وحرفه عن المصالح الوطنية العليا. يتجلّى هذا التضليل بشكل واضح في التخوين المعتاد والاتهام بالانحراف عن العقيدة ضدّ كلّ من ينتقد سلوك الإسلام السياسي الشيعي.

فهناك تصوّر حاكم عن الشيعية السياسية يُحدّد الأدوار المتوقّعة من الفاعل السياسي الشيعي يجب ألّا يغادرها، وإلا كان شيعياً خانناً أو «غير شيعي». وجّهت هذه «الحاكمية الشيعية» أسلحتها السياسية والإعلامية والدعائية، منذ تظاهرات أكتوبر/ تشرين الأول (2019) على الأقل، بشراسة وعنف ضدّ خصومها داخل المجتمع العراقي الشيعي تحديداً، وارتكبت انتهاكاتٍ عديدة لحقوق الإنسان، وكانت آخر صفحات هذه المواجهة هي مع التيّار الصدري، لأنّه أراد تشكيل كتلة برلمانية من بعض الشيعة (التيّار الصدري)، وبعض الأكراد (الحزب الديمقراطي الكردستاني)، وبعض السُنّة (تحالف السيادة)، عقب انتخابات أكتوبر (2021). لو كان لهذا التحالف، الذي فشل ثمّ قاد التيّار الصدري إلى الانسحاب من البرلمان والعمل السياسي بالجمل أن يتحقّق لابتعد خطوة عن التقسيمات الطائفية السياسية التي حكمت العمل السياسي في العراق منذ 2003. حيث يكون الجميع جزءاً من الحكومة، فهنا ستكون كتلتان: كتلة تُشكّل الحكومة وكتلة معارضة، وكلا الكتلتين تضمّان أطيافاً مذهبية وعرقية متنوّعة. على الأغلب، في حال عاد التيّار الصدري إلى النشاط السياسي، وكانت هناك انتخابات برلمانية مبكّرة، من المتوقع أن يعيد الصدر، وبسهولة، إنشاء تحالفاته السياسية السابقة، ولكن، كي يضمن مشاركةً أكبر للناخبين، قياساً بالانتخابات السابقة الضعيفة، عليه أن يُصفّي الأجواء مع الأطياف المدنية وغير الإسلامية، ويراب الصدوع التي حصلت بسبب «تظاهرات تشرين» ومشاركة الصدريين في قمعها، وأن يقوم بمراجعات جدّية لما حصل في السنوات السابقة، وينفتح على رؤى الوطنيين وتصوّراتهم خارج الأطر العقائدية والمذهبية.

غزّة فريسة الفشل المُشتهى

حسان الأسود

«أنا يوسفٌ يا أبي يا أبي، إخوتي لا يحبونني، لا يريدونني بينهم يا أبي. يعتدون عليّ ويرمونني بالحصى والكلام، يريدونني أن أموت لكي يمدحوني. وهم أوصدوا باب بيتك دوني. وهم طردوني من الحقل، هم سمّوا عنبي يا أبي. وهم حطّموا لُعبي يا أبي. حين من النسيم ألاعب شعري غاروا وثاروا عليّ وثاروا عليك. فماذا صنعتُ لهم يا أبي؟» يعصرُ الكاتب ذاته أحياناً فلا يجد ما يروي ظمأه الداخلي في انتقاء مواضيع الكتابة، وأحياناً أخرَ تقذفُ زُناد فكره لوحةٌ فنيةٌ أو قصيدةٌ شعرٍ أو حتى شاخصةٌ مرورية. تنقله لحظةٌ الخطف هذه إلى مقاربات استثنائية لم تكن لتخطر على باله في الأحوال العادية. تكثر هذه التخاطرات الداخلية، إن صحّ استخدام المصطلح، عند الكتّاب المحترفين ولأولئك الموهوبين حتى لتكادُ تصبح إلهاماً، وليس غريباً على العرب أنهم استخدموا قديماً أوصافاً تدلّ على التخاطر مع الجنّ باعتباره سبباً لإلهامهم قصائدهم، وما وادي عبقر إلاّ اسمٌ لوادي الجنّ، مررتُ على ذاتي، التي أقسمها بين السياسة والثقافة وشؤون الحياة اليومية بأنحيازٍ إلى السياسة بكادُ يسلب للأسرة كلّها مشكّلات مزمنة، فوجدتها ممزّقة بين أقطاب الواقعيّة السياسية المتعدّدة، الخالية من كل إحساس إنساني أو مشاعر من أي نوع كانت، وبينَ ذاك الدفقِ البعيد من أحلام غابرة كانت محركةً لمسار حياتي وحياةُ أفراد أسرتي خلال ثلاثة عشر عاماً خلت، وقد تكون هي ذاتها لو شبيه لها ما حرّك حيوات آلاف السوريين والسوريات يوم نفضوا عنهم غُبار الصمت؛ وقد تكون متبلاتها من تراود أي فلسطيني عن نفسه كلّما خلد إلى روحه يسألها عن المصير.

بحثتُ في جعبتي عن كلمات أرخيها ستاراً بين الواقع والحلم، أسطرها على لوحة مفاتيح الحاسب لتندرج في موقع إلكتروني أو صحيفة، أو لتلقى في الركن عند مسؤول التحرير أو مديره الدقق اللغوي، أو حتى لتبقى حبيسة غرف التواصل الاجتماعي والعوالم الافتراضية، فلم أجد ما يسعفني لبدء مقالة الامس فيها، من وجهة نظري المتواضعة، شائاً فائق الأهمّية، راعف الدماء متجدّد الإلمو سوى قصيدةً أنا يوسف يا أبي، لكنّ محمود درويش، الذي اعشقُ شعره حتى طغى على ذائقتي التي باتت تزنّ كل كتابة أدبية بميزانه «الدرويشي»، إن سمحت لي روحهُ الخالدةُ بين عباقرة الإنسانيّة نحتّ هذا المصطلح، أسعفني إذ اختصّ لي بتكثيفه الخارق لنواميس الطبيعة ما يختلج بين ضلوعي ويجول في عقلي من أفكار. فلماذا يكره يوسفُ الغزّاوي إخوتَه، وهل أعمتهم كلّهم الغيرة من حلمه بالوجود، أم هل يرون في مراة وجهه صورة هزيمتهم ونذلهم وخذلانهم فيشيحون عنها وعنه كي لا يذكرهم بذواتهم المتبسمة؟

لكنّ يوسف الغزّاوي ليس وحيداً في غبابة الجب، بل رمى الدهرُ معه إخوته من آمَه العروبة، بمدّ يوسف أصابع يديه الغضّتين ليتحسس جدران البئر، فترتسم امامه في وحشة الظلماء وجوه من قضوا نحبهم في حفرة الظلمات ومساحة رابعة وأحياء الموصل وشوارع بيروت وضفاف النيل الأزرق. ورغم أنّه لا يهمّ الشاة السلخ بعد الذبح، إلا أنّ الإيناس يأتي من مجاورة من نحبّ ولو في القبور. لكنّ يوسف لا يموت، يوسف أرضٌ ارتوت بالسك والعنبر، حلمٌ فاض عن الحقيقة وفاقَ الخيال، يوسف أنشودة يغنيها القمر وتحرسها الشمس وتسقي نُسغها كلمات الله وحبّها، تلك التي ينفذُ البحر لو كان مدادًا لها ولهي لا تنفد. من أنا لأقول لكم من هو يوسف، أو لأقول لكم ما أقول لكم؟ هل أنا محمود درويش الذي كان حجرًا فصقلته المياه فاصبح وجهًا، وكان قصبًا ثقبته الرياح فاصبح نايًا؟ أنا واحدٌ منكم، حجرٌ مرصوفٌ في جدار البئر، أنا لوحة علّقها قائد الجيش نبشانًا على برّته التي تقطر دماءً وأرواحًا معذّبة، أنا أنتم وكلّ واحد منكم. أنا ابن غزّة كما ابن درعا، وهاشم الذي ضمّ ثراها رفاته هو جدّي، وتسري في عروقي بقيّة من دمائه، وفي وجداني أنّ الأرض لي والهواء والبحر لي، غزّة لي كما درعا لي أيضا، ولن تبقى فريسة الفشل المشتهى من إخوتي يا أبي.

(كاتب سوري في برلين)

في معاني الليلة الإيرانية

احمد جميل عزم

سيبقى ردّ طهران ليلة الأحد الفائت على قصف إسرائيل القنصلية الإيرانية في دمشق، يوم الأول من إبريل/ نيسان الحالي، مشهداً فارقاً في تاريخ الشرق الأوسط؛ مشهداً فريداً، فيه غرابة وحتى طرافة، على أهميته. وبينما يمكن لطهران وواشنطن والإسرائيليين ادّعاء الانتصار، رغم أنّهم في خنادق متقابلة، سيؤكّد المشهد أنّ منهج حركات التحرّر في فلسطين، والعامل الذاتي الفلسطيني، في مواجهة الاحتلال، هو الأكثر تأثيراً الذي لا يمكن تجاوزه، فيما باقي المواقف والقضايا متغيّرة ونسبيّة.

افتخر إيرانيون وهتفوا فرحاً وبحماسة، فاسلحتهم (أكثر من 300 طائرة مسيّرة وصواريخ سكود وصواريخ أرض أرض)، قطعت مسافة ألف كيلو متر لتضرب إسرائيل، في المقابل، تفتخر إسرائيل، ومعها الولايات المتّحدة، أنّها أسقطت 99% من الأسلحة الإيرانية، وجعلت نتيجتها أقرب إلى صفر، ومنعت سقوط خسائر في الأرواح، بينما قتلت الغارة الإسرائيلية في دمشق 16 شخصاً. أضحت المُسيّرات الإيرانية جزءاً من الترسانة الروسيّة في أوكرانيا، وهذه «الأسلحة الثلاثمائة» لم تنطلق من إيران وحدها، بل أيضاً من العراق، ولبنان، واليمن، وسقطت في فلسطين وأحيطها، بما في ذلك الأراضي الأردنية، ما يعني أنّ إيران قادرة على أن تقول إنها موجودة في كلّ مكان غرباً وشرقاً، لكنّه وجود غير حاسم، فهو لا يحقّق نتائج كبيرة عسكرياً. لم يحدث سابقاً أن تناقل العالم خبر انطلاق الأسلحة من بلد إلى آخر وأنّها تحتاج من خمس إلى سبع ساعات لتصل إلى أهدافها، وكأنّ الخبر يقول: على المستهدفين الاستعداد وتفادي الخسائر. ... هذا مشهدٌ فريد، وجده بعضهم طريفاً. فعادةً، تكون الهجمات مفاجئة ومباغتة. يقيت إسرائيل مستيقظة مع كثير من الترقّب والخوف بانتظار وصول المسيّرات والصواريخ، وتكبّدت خسائر مالية ونفسية كبيرة. والسؤال هنا: هل سبب هذا البطء عجز السلاح الإيراني وتقدّم المنظومات الدفاعية الإسرائيلية الأميركية؟ أم هو جزء من قواعد اشتباك «خطوط حمراء» متّفق عليها ضمنيّاً بشأن الخسائر التي يُسمح لكلّ طرفٍ أن يُوقعها في الطرف الآخر جزءاً من استراتيجيات الطرفين؛ الإيراني من جهة، والإسرائيلي الأميركي، من جهةٍ أخرى؟

إسرائيلياً، لطالما كانت إيران موضوعاً يُثار لحرف الانتباه عن المسألة الفلسطينية. فمثلاً، في خطابات رئيس الوزراء الإسرائيلي، بنيامين نتنياهو، في الجمعية العامة للأمم المتحدة، يُخصّص جزء كبير للهجوم على طهران، ويتذكّره (نتنياهو) العالم وهو يحمل صورة ترمز للقنبلة النووية الإيرانية المزعومة. ويواصل الإسرائيليون الحديث عن الخطر الإيراني، وأنّه مبرّرٌ لتطبيع عربي إسرائيلي في مواجهة الخطر الفارسي/ الإيراني/ الشيعي، مع تجاهل الموضوع الفلسطيني. وقد كان في آخر تصعيد إسرائيلي مع إيران حرفٌ للانتباه عمّا يحدث في قطاع غزّة، ولاستعادة قدر من التأييد الدولي الغربي لإسرائيل بعد النقد المتزايد للجرائم الإسرائيلية في غزّة والضفة.

إيرانياً، فإنّ مواجهة إسرائيل، ودعم المقاومة ضدّها، جزء من شرعية وأيديولوجية النظام الإسلامي فيها، ووسيلة للحصول على التأييد الشعبي داخلياً وخارجياً. وتحكم سياسة طهران إزاء إسرائيل قواعد؛ أوّلها الواقعيّة السياسية التي كثيراً ما تطفو على السطح، فأحياناً يجري التفاهم والالتقاء ضمناً أو صراحةً مع «الأعداء»، كما في صفقة الأسلحة الأميركية إلى إيران بوساطة إسرائيلية في الثمانينيات (إيران كونترا أو إيران غيت) أو الصمت المتواطئ إيرانياً على الهجمات الأميركية الأخيرة التي تخصّ الكيان الإسرائيلي. اختلال ميزان القوى لمصلحة إسرائيل، بسبب الدعم الغربي، الأميركي خصوصاً، لا يسمح لإيران بالمواجهة والتصعيد إلى حرب أوسع، خاصة أنّ حلفاءها ليسوا في وارد الانخراط في حرب إقليمية، فالصين تركّز على نموها الاقتصادي واستراتيجية الحزام والطريق، وروسيا منهكة في حربها في أوكرانيا. جاء الردّ الحتمي الذي توعّدت به طهرانُ إسرائيل رمزياً لحفظ ماء الوجه، وكان من الممكن تنفيذه فوراً بعد قصف إسرائيل القنصلية الإيرانية، لكنّ مدّة أسبوعين من الانتظار كانت حافلة بجولات مكّوكية في المنطقة لوزير الخارجية الإيراني حسين أمير عبد اللهيان من أجل التنسيق مع الولايات المتحدة عبر الوساطة العُمانية، لاحتواء ردّ إيران الانتقامي، إضراراً طفيفة في البنية التحتية وبعض الإصابات. أعلنت البعثة الإيرانية في الأمم المتحدة «انتهاء الردّ» على قصف القنصلية، وتم فتح الأجواء أمام حركة الطيران في إسرائيل والأردن والعراق ولبنان مباشرة بعد انتهاء العملية، فيما كانت فحوى المكالمة الهاتفية بين الرئيس الأميركي جو بايدن ورئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو تأكيد واشنطن التمسّك بأمن إسرائيل، وفي الوقت نفسه محاولة لجم الأخيرة عن استفزاز طهران بمزيد من العمليات النوعية والاغتيالات.

بالنسبة لإيران ليس التصعيد في المنطقة في مصلحتها، وكما الولايات المتحدة، تريد للحرب أن تبقى محصورة في غزّة. أصلاً لم تدعم طهران حركة حماس في مقاومتها الاعتداء الإسرائيلي منكم، أنا ابن غزّة كما ابن درعا، وهاشم الذي ضمّ ثراها رفاته هو جدّي، وتسري في عروقي بقيّة من دمائه، وفي وجداني أنّ الأرض لي والهواء والبحر لي، غزّة لي كما درعا لي أيضا، ولن تبقى فريسة الفشل المشتهى من إخوتي يا أبي.

(كاتب سوري في برلين)

إسماعيل هنيّة... وهذه النذالات

معن البياري

كانت محقّةً الغضبة الغريبة العريضة من قتل جيش الاحتلال ستة متطوعي إغاثة أجانب في غزّة، بتبعون المطبخ المركزي العالمي. ولا يمكن، في كل حال، غير التنديد الشديد بهذه الجريمة، ولكنّ شيئاً من العنصرية حفّ بتلك الغضبة، أغمضنا عنه عيوننا، نحن المغاظين من كيل الولايات المتحدة وأمثالها بألف مكيالٍ بشأن القتل اليومي في أهل غزّة، غير أن إغماض الدول التي استفظعت الجريمة (وهي على حقٍّ في هذا) عيونَها عن جريمة ليست أقلّ شناعة، أياماً بعد تلك، وهي قتل ثلاثة أبناء وثلاث حفيدات وحفيدٍ لرئيس المكتب السياسي لحركة حماس، إسماعيل هنيّة، لن يعني سوى العنصرية نفسها، لأن الصمت عن استنكار النذالة الموصوفة في استهداف هؤلاء الشباب والصبايا، يكاد يصيرا تواطؤاً، سيّما أن هذه الجريمة في يوم عيد المسلمين ارتكبها جيش القتلة بكيفيةٍ لا تُغاير تلك التي أزهق بها أرواح المغيّبين الأجانب النبيلين. أما نذالة القتلة طالما ثرثروا عن فنادق الدوحة وإسطنبول التي يقيم بها أبناء إسماعيل هنيّة فلا تستحقّ اكتراثاً بها. وعندما يقول هذا المجاهد، الصبور الزاهد، إن دماء أبنائه ليست أغلى من أبناء شعب فلسطين، فإنه لا يحفل بهؤلاء، وإنما يؤكّد المؤكّد عن قيادتِه، وعن حديديةٍ أعصابه، كيف لا والرجل يشع ثقةً بالنفس، ويقع من يجلس إليه على روحٍ جسورةٍ فيه، وينجذب المنصت إليه إلى رجاحة حجّته. ولئن بخل بعض رؤساء ومسؤولين عربٍ في مواساته (حسناً من محمود عبّاس اتصاله الهاتفي به) فإنهم بهذا أضافوا خدوشاً أخرى إلى صورتهم في أمّتهم. والقول هنا، في هذا الزعيم النادر المعدن، إنه، بالذي بدا عليه، وهو يتلقّى نبأ استشهاد أبنائه وحفيداته وحفيده، صنع لنفسه موضعاً جليلاً مرضعاً بالنور في التراجيدا الفلسطينية الطويلة.

أياماً قبل نذالة العدو في جريمة قتل حازم وأمير ومحمد وخالد وورزان ومنى وآمال، الموصولة دماؤهم بمن سبقوهم ومن تبعوهم من شهداء المقتلة الجارية في قطاع غزّة، أياماً بعد نذالة العدو في جريمة قتل السبعة (ستة أجانب وفلسطيني) من المطبخ المركزي العالمي، شوهدت على الشاشات نذالةٌ من جنس آخر: مشاركة رئيس دولة الاحتلال حاييم هيرتزوغ، في إحياء الذكرى الثالثين للإبادة الجماعية في رواندا، وراح ضحيّتها نحو 800 ألف روانديّ أغلبهم من التوتسي في عنف الهوتو. يُدعى هذا الرجل إلى التظاهرة العالمية هذه، في كيغالي، من دون التفات مَن دعوه إلى شراكته المباشرة في إبادةٍ جارية في غزّة، وهو صاحب القول إيّاه عن عدم وجود مدنيين أبرياء في القطاع، في ترخيص منه لمحدلة التموين النشطة ضد شعبٍ أعزل، وقد نال في هذا خرياً ما بعده خزي عندما اعتدّت جنوب إفريقيا في دعواها بكلامه هذا، بل أيضاً بصورته وهو يوقّع على صواريخ إسرائيلية قيد الإطلاق ضد أطفال غزّة ونسائها ومشافيها وعموم ناسها. وهناك، في البكائية الدولية أمام مركز كيغالي التذكاري للإبادة الجماعية، طالب المذكور بعدم «تسييس» الإبادة، أو التقليل من شأنها. ومن فائض النذالة وشناعتها أن أحداً من مستمعيه لم يعقّب عليه، بالأخذ بنصيحته النافلة هذه، فيذكّره بأنه ليس من «التسييس» في شيء استنكار حضوره، طالما هو في منزلة الشريك في الإبادة في غزّة، فضلاً عن أن الدولة التي يرأسها ويمثلها، واسمُها إسرائيل، زوّدت الهوتو بأسلحة استخدمت في إبادة التوتسي، وأن المحكمة الإسرائيلية العليا منعت، في 2014، أي إشهارٍ في هذا الخصوص، وأمرَت ببقائه «سرّاً»، وإنْ من مفارقاته أنه ذائع!

قال الرئيس الفرنسي، ماكرون، في المناسبة نفسها في كيغالي، إنه كان في وُسع بلاده أن تمنع حرب الإبادة في رواندا، والقول منا إليه إنه كان في وُسع بلاده أن يكون لها موقف قويٌّ ومسؤول وأخلاقيٌّ من حرب الإبادة الإسرائيلية في غزّة، بل إن افراطاً في النذالة تبدّى في نعت رئيس الوزراء الفرنسي، غابرييل عتال، أمام البرلمان، نواباً طالبوا بوقف تصدير فرنسا أسلحة إلى إسرائيل، بأنهم «يدعمون إرهاب حماس»، ثم راح يرافع عن الدولة العبرية، من دون أي التفاتةٍ منه إلى عشرات آلاف المدنيين الفلسطينيين الذين سقطوا في حرب الإبادة في غزّة، الحرب التي يُشارك فيها جنود إسرائيليون بجنسيات فرنسية.

أرطال النذالات في العالم ثقيلة، أوجزت عن بعض منها السطورُ أعلاه، غير أن جبلاً اسمُه إسماعيل هنيّة لا ينفك يطمئننا بأن فلسطين أقوى، دائماً، من أصحاب هذه النذالات، أينما كانوا.

انفجار فقّاعة حرب الأيام الستة

عيسى الشعيبي

بعد حرب 1967 بقليل، وبينما كانت المقاومة الفيتنامية تتصاعد بوتائر عالية وتحتلّ العناوين، تداول الإسرائيليون المنتشون بنتائج عدوان الخامس من يونيو من ذلك العام، نكتة سَمِجَة، إنّ وزير الحرب آنذاك موشيه دايان اتصل هاتفياً بنظيره الأميركي روبرت مكنامارا عارضاً عليه إرسال الفرقة الموسيقية في جيش الاحتلال إلى الادغال الفيتنامية للقضاء، على الـ«فيت كونغ» في 6 أيام، كافية لحسم الحرب وتخليص الدولة العظمى من ورطتها العسكرية. لم تكن هذه النكتة الجارحة التي تبادلها السُكارى في أجواء الاحتفالات الصاخبة بهزيمة الجيوش العربية، وجاهر بها المنتشون بحصيلة حربٍ حققت أكثر مما كان مخطّطاً لها، مجرد طرفة ساخرة، وإنّما كانت التعبير الماجن عن المناخ السياسي والسيكولوجي السائد في حينه، إذ كان غرور القوّة طاغياً، وروح الغطرسة ضاربة في الجيش والمجتمع والكنيست، ما تجلّى في أوضح صوره في الأداء السياسي المتفلّت من كلّ اعتبار أو قيد، وفي الخطاب الإعلامي الفائض بالعجرفة والاستعلاء، تماماً على نحو ما أكّدته الاعتداءات المتلاحقة من دون رادع، وبرهنت عليه شتّى قرارات الضمّ والاستيطان. ما كان للعنوان أعلاه أن يجد لنفسه مسوّغاً في المجال العام أو مطرحاً على شاشة الكمبيوتر، ولا أن يُطرح هكذا قبل 6 أشهر، لولا ذلك الطوفان الهائل فجر يوم السابع من أكتوبر (الماضي)، وما تلاه من تداعيات غيّرت وجه الشرق الأوسط، وربما العالم، فانهم بهذا أضافوا خدوشاً أخرى إلى صورتهم في أمّتهم. والقول هنا، في هذا الزعيم النادر المعدن، إنه، بالذي بدا عليه، وهو يتلقّى نبأ استشهاد أبنائه وحفيداته وحفيده، صنع لنفسه موضعاً جليلاً مرضعاً بالنور في التراجيدا الفلسطينية الطويلة.

أياماً قبل نذالة العدو في جريمة قتل حازم وأمير ومحمد وخالد ورزان ومنى وآمال، الموصولة دماؤهم بمن سبقوهم ومن تبعوهم من شهداء المقتلة الجارية في قطاع غزّة، أياماً بعد نذالة العدو في جريمة قتل السبعة (ستة أجانب وفلسطيني) من المطبخ المركزي العالمي، شوهدت على الشاشات نذالةٌ من جنس آخر: مشاركة رئيس دولة الاحتلال حاييم هيرتزوغ، في إحياء الذكرى الثالثين للإبادة الجماعية في رواندا، وراح ضحيّتها نحو 800 ألف روانديّ أغلبهم من التوتسي في عنف الهوتو. يُدعى هذا الرجل إلى التظاهرة العالمية هذه، في كيغالي، من دون التفات مَن دعوه إلى شراكته المباشرة في إبادةٍ جارية في غزّة، وهو صاحب القول إيّاه عن عدم وجود مدنيين أبرياء في القطاع، في ترخيص منه لمحدلة التموين النشطة ضد شعبٍ أعزل، وقد نال في هذا خرياً ما بعده خزي عندما اعتدّت جنوب إفريقيا في دعواها بكلامه هذا، بل أيضاً بصورته وهو يوقّع على صواريخ إسرائيلية قيد الإطلاق ضد أطفال غزّة ونسائها ومشافيها وعموم ناسها. وهناك، في البكائية الدولية أمام مركز كيغالي التذكاري للإبادة الجماعية، طالب المذكور بعدم «تسييس» الإبادة، أو التقليل من شأنها. ومن فائض النذالة وشناعتها أن أحداً من مستمعيه لم يعقّب عليه، بالأخذ بنصيحته النافلة هذه، فيذكّره بأنه ليس من «التسييس» في شيء استنكار حضوره، طالما هو في منزلة الشريك في الإبادة في غزّة، فضلاً عن أن الدولة التي يرأسها ويمثلها، واسمُها إسرائيل، زوّدت الهوتو بأسلحة استخدمت في إبادة التوتسي، وأن المحكمة الإسرائيلية العليا منعت، في 2014، أي إشهارٍ في هذا الخصوص، وأمرَت ببقائه «سرّاً»، وإنْ من مفارقاته أنه ذائع!

قال الرئيس الفرنسي، ماكرون، في المناسبة نفسها في كيغالي، إنه كان في وُسع بلاده أن تمنع حرب الإبادة في رواندا، والقول منا إليه إنه كان في وُسع بلاده أن يكون لها موقف قويٌّ ومسؤول وأخلاقيٌّ من حرب الإبادة الإسرائيلية في غزّة، بل إن افراطاً في النذالة تبدّى في نعت رئيس الوزراء الفرنسي، غابرييل عتال، أمام البرلمان، نواباً طالبوا بوقف تصدير فرنسا أسلحة إلى إسرائيل، بأنهم «يدعمون إرهاب حماس»، ثم راح يرافع عن الدولة العبرية، من دون أي التفاتةٍ منه إلى عشرات آلاف المدنيين الفلسطينيين الذين سقطوا في حرب الإبادة في غزّة، الحرب التي يُشارك فيها جنود إسرائيليون بجنسيات فرنسية.

أرطال النذالات في العالم ثقيلة، أوجزت عن بعض منها السطورُ أعلاه، غير أن جبلاً اسمُه إسماعيل هنيّة لا ينفك يطمئننا بأن فلسطين أقوى، دائماً، من أصحاب هذه النذالات، أينما كانوا.

الحرب على غزّة... ترويكا ماكرون و ترويكا سانشيز

عبد الحميد اجماهيري

حوّلت الحرب الإسرائيلية على غزّة ثلاثة رؤساء دول إلى مُجرّد أصحاب رأي، وسط التفاعلات المتواترة التي نجمت عن الإبادة الجماعية. فجاءت دعوة الرئيسين؛ الفرنسي إيمانويل ماكرون، والمصري عبد الفتاح السيسي، رفقة العاهل الأردني عبد الله الثاني، إلى وقف فوري لإطلاق النار في غزّة والإفراج عن جميع الرهائن، على شكل مقالة رأي نشرتها أربع صحف يومية: لوموند (فرنسية) وواشنطن بوست» (أميركية)، والرأي (أردنية)، والأهرام (مصرية)، إعلاناً صارخاً عن العجز الجيوسياسي لثلاث من أهمّ عواصم صناعة القرار في منطقة مظفر النواب للقدس أو «مديح الظل العالي»، تحمل توقيع القادة أنفسهم، يقدّم الاشتراكي العمالي الإسباني، بيدرو سانشيز، مرّة أخرى، الموقف الذي تتطلّبه المرحلة، كما يُنشّط النقاش الحقيقي الذي يتطلّبه الشرط الجيوستراتيجي في الشرق الأوسط حالياً، فقد جمع حوله ثلاثية أكثر تقدّماً في الدفاع عن الفكرة الفلسطينية، وعن الموقف الذي تتطلّبه المرحلة، كما يُنشّط النقاش الحقيقي الذي يتطلّبه الشرط الجيوستراتيجي في الشرق الأوسط حالياً، فقد جمع حوله ثلاثية أكثر تقدّماً في الدفاع عن الفكرة الفلسطينية، وعن المُحرّج لما يقع، عندما توجّه إلى أوسلو، في 11 إبريل/ نيسان الحالي، ثم إلى دبلن حيث عقد مؤتمرين صحافيين مشتركين مع نظيريه النرويجي يوناس غار ستور، والأيرلندي سيمون هاريس، أعلنت بعده الدول الثلاث الاستعداد للاعتراف بدولة فلسطينية، بالاشتراك مع دول أخرى، سانشيز الذي يدعو إلى الاعتراف بدولة فلسطينية، جعل من هذا الهدف أفقاً جيوستراتيجياً، وحدّد له تاريخاً هو نهاية شهر يونيو/ حزيران المقبل، كما جعل منه حجر الزاوية في تحليله الوضع العالمي، وكذا لتقدير الموقف الأوروبي، وإذا كان يتحرك في كلّ العواصم ذات التأثير في مستجدّات الشرق الأوسط، وأوروبا تحديداً، فهو يدرك أنّ اختيار الزمن، بين استعجالية الوضع الحالي وضرورة إنضاج شروط الإعلان، يفرض عليه «الاعتراف بالدولة الفلسطينية في أقرب وقت عندما تكون الظروف مناسبة، وبطريقة يكون لها أكبر تأثير إيجابي في عملية السلام». التحرّك الحالي لسانشيز سيجعل من مدريد «طرفاً فاعلاً مهماً في إطار زخم دبلوماسي جديد في النزاع الإسرائيلي الفلسطيني»، بحسب مذكّرة لمعهد الكانو الملكي للدراسات.

ولعل أهم شيء يُنطلق منه سانشيز هو رؤيته الواقعية التي تعتبر أنّ الاعتراف «يندرج في إطار المصلحة الجيوسياسية لأوروبا»، وبالتالي وضع فلسطين في صرّة العالم الاستراتيجي، على عكس العقيدة الغربية التي أكّدت، وتؤكّد، طوال العقدين الأخيرين أن حماية إسرائيل من براكين الشرق الأوسط هي ضمانة لمصلحة الغرب عموماً، وأوروبا خصوصاً، واعتبار أنّ ما يتفرع عن ذلك هو ضرورة تقزيم أدوار الدول المعادية، بل تفكيكها كما هو حال العراق في بداية الألفية أو توسيع حضور الدولة العبرية في صناعة الوضع الجيوستراتيجي العربي الجماعي. وتكتسي تحركات الإسباني الاشتراكي أهمية في محيطه القارّي، إذ إنّه سيغير من الموقف الأوروبي، وينشط دينامية جديدة عابرة للأوطان. ويدخل التحرك ضمن دينامية طرح الاعتراف مجدداً أمام مجلس الأمن، وهو الطلب الذي يراوح مكانه منذ سبتمبر/ أيلول 2011، عندما أطلق رئيس السلطة الفلسطينية إجراءات «انضمام دولة فلسطين إلى الأمم المتحدة»، وظلّ مُعلقاً في دهاليز الجهاز التنفيذي لهذه المنظمة الأممية، في انتظار توصية إيجابية من مجلس الأمن تسمح بتحويله إلى الجمعية العامة.

والواضح أنّ أدوات الفعل عند الترويكا التي شكّلها سانشيز بشأن جدول أعمال فعلي، بعيد بعض الأمل في المسلسل الأممي حول الحق الفلسطيني، مع حدوده الدنيا من النجاح، والترويكا التي نشّطها ماكرون لا تتقاطع سوى مع أسقاطات الوضع الحالي على السلام الدولي. وغير ذلك، تظلّ الأدوات متباينة إن لم نقل على طرفي نقيض، فهي بلاغية تعبيرية في ثلاثية ماكرون، وسياسية دبلوماسية عند ترويكا سانشيز، ولعلّ الوضع المنفلت الموسوم بالتصعيد الحالي سيعطي معنى للترويكا الأخيرة، في حين سيزيد من عبثية الرسائل مجهولة العنوان لدى الثانية.

(كاتب مغربي)

وابل من القنابل والجوع والتقتيل، بقرار مشترك منهما، وتوفير الحدّ الأدنى للوقوف في وجه الحصار الذي يمنع المساعدات. لم تعلن الرسالة عن المُرسَل إليه، فكانت لا تختلف عن أي بيان صادر عن المنظمات الدولية أو المثقفين المتلزمين أو المراقبين غير المحايدين للوضع في المنطقة، وغرقت في لغة وصفية، وسقطت في نوع من تحصيل حاصل (طوطولوجيا) محذّرة من أنّ الحرب «لا تُفضي إلا إلى مزيد من الموت والمعاناة، وزيادة مخاطر وعواقب التهجير القسري الجماعي لسكان غزّة»، كما لو أنّ غيرهم كان يتوقع أن تؤدي الحرب إلى الخصب والمهرجانات والسرور العارم.

في انتظار قصيدة جماعية على شاكلة قصائد مظفر النواب للقدس أو «مديح الظل العالي»، تحمل توقيع القادة أنفسهم، يقدّم الاشتراكي العمالي الإسباني، بيدرو سانشيز، مرّة أخرى، الموقف الذي تتطلّبه المرحلة، كما يُنشّط النقاش الحقيقي الذي يتطلّبه الشرط الجيوستراتيجي في الشرق الأوسط حالياً، فقد جمع حوله ثلاثية أكثر تقدّماً في الدفاع عن الفكرة الفلسطينية، وعن الموقف الذي تتطلّبه المرحلة، كما يُنشّط النقاش الحقيقي الذي يتطلّبه الشرط الجيوستراتيجي في الشرق الأوسط حالياً، فقد جمع حوله ثلاثية أكثر تقدّماً في الدفاع عن الفكرة الفلسطينية، وعن المُحرّج لما يقع، عندما توجّه إلى أوسلو، في 11 إبريل/ نيسان الحالي، ثم إلى دبلن حيث عقد مؤتمرين صحافيين مشتركين مع نظيريه النرويجي يوناس غار ستور، والأيرلندي سيمون هاريس، أعلنت بعده الدول الثلاث الاستعداد للاعتراف بدولة فلسطينية، بالاشتراك مع دول أخرى، سانشيز الذي يدعو إلى الاعتراف بدولة فلسطينية، جعل من هذا الهدف أفقاً جيوستراتيجياً، وحدّد له تاريخاً هو نهاية شهر يونيو/ حزيران المقبل، كما جعل منه حجر الزاوية في تحليله الوضع العالمي، وكذا لتقدير الموقف الأوروبي، وإذا كان يتحرك في كلّ العواصم ذات الت

الاتحاد الأوروبي وحرب السودان: تبنّي السرديات البديلة تشجيع للإرهاب

علي الصادق علي

اطّلعت على مقال مشترك للسيدين جوسيب بوريل فونتليس المفوض السامي للاتحاد الأوروبي للشؤون الخارجية والسياسة الأمنية ونائب رئيس المفوضية الأوربية، ويانيز لينارتستيش، المفوض الأوروبي للأزمات، يوم الاثنين 8 إبريل/ نيسان الجاري عن الأزمة في السودان. أقدّر للمسؤولين الأوروبيين الرفيعين اهتمامهما بما يجري في بلادي، وانشغالهما بالأزمة الإنسانية الراهنة فيها، غير أن أولى خطوات المعالجة الناجعة لأي مشكلة هي الفهم الصحيح والتوصيف الدقيق لها، ومن ثم السعي إلى إيجاد الحل المناسب. وما وضح لي من المقال أنه انطلق من فهم خاطئ للأزمة، وافتراضات تجانب الموضوعية والإنصاف. وإذا ساد مثل هذا الفهم، فإنه سيؤدّي إلى تعميق الأزمة وزيادة المعاناة الإنسانية في السودان. ... يُقال إن الحقيقة دائما هي أولى ضحايا الحروب. وذلك بسبب السرديات البديلة للواقع التي يشيعها من يقف وراء الحرب. وقد وقع كاتبا المقال في هذا الفخ بقصد أو بدونه. لقد عزوا اندلاع الحرب قبل عام إلي ما أسمياه الانقلاب العسكري المشترك في أكتوبر/ تشرين الأول 2021. ولا شيء أبعد من الحقيقة من هذا الزعم.

جاءت إجراءات 25 أكتوبر (2021) في ذروة أزمة سياسية عصفت بتحالف قوى الحرية والتغيير (قحت) التي كانت تمثّل الجانب المدني في الشراكة العسكرية المدنية التي تأسّست على الوثيقة الدستورية 17 أغسطس/ آب 2019، وتولت تشكيل حكومتي الفترة الانتقالية في سبتمبر/ أيلول 2019 وفبراير/ شباط 2021. تعرّضت «قحت» لانشقاقات وانقسامات متتالية، وبرزت منها ثلاث كتل متصارعة، وسط اتهامات متبادلة بخرق الوثيقة الدستورية، والتخلّي عن أهداف الثورة، والتنصّل من اتفاقية جوبا للسلام، أكتوبر/ تشرين الأول 2020. وأدّت هذه الأزمة إلى تعطيل الحكومة الانتقالية، بل وتعطيل النشاط الاقتصادي ومعظم مظاهر الحياة العادية في البلاد، بسبب الاعتصامات وإغلاق الطرق العامة، بما فيها الطريق البري بين السودان ومصر والطريق إلى ميناء بورتسودان والميناء نفسه، وهذه هي شرايين الحياة الاقتصادية في البلاد. وبالتالي، كانت إجراءات أكتوبر 2021 محاولة للخروج من تلك الأزمة المستحكمة، خصوصا بعد فشل ثلاث محاولات لرئيس الوزراء الانتقالي لحلّها. وقد حظيت هذه الإجراءات بالدعم الكامل من إحدى الكتلتين الرئيستين لقوى الحرية والتغيير، خاصة حركات الكفاح المسلح، أطراف اتفاقية جوبا. وعلى أي حال، مثل الاتفاق الذي وقّع بين المكون العسكري ورئيس الوزراء الانتقالي في 30 نوفمبر/ تشرين الثاني 2021 نهاية لإجراءات أكتوبر 2021، إذ عاد الأخير إلى مباشرة مهامه. لكنه استقال بعد شهر، لعدم استطاعته توحيد رؤية الأطراف المتصارعة داخل «قحت». كيف، إذن، يمكن أن تُعزى حرب 15 إبريل (2023) إلى ما حدث في أكتوبر 2021؟

... تعود الأسباب الحقيقية للحرب إلى إصرار أطراف خارجية وداخلية على الإبقاء على قوات الدعم السريع المتمرّدة والمحلولة، وتقويتها لتكون جيشا موازيا للقوات المسلحة، الجيش الوطني المهني، وفي تحالف مع مجموعات سياسية مدنية، تريد أن تنفرد بالحكم خلال فترة انتقالية ممتدّة، بدعم من تلك الأطراف الخارجية. وللأسف، تماهت بعثة الأمم المتحدة المتكاملة لدعم المرحلة الانتقالية (يونيتامس) مع هذا المخطّط.

... استعان الرعاة الإقليميون للمليشيا المتمرّدة بعدة آلاف من المرتزقة الأجانب والمليشيات القبلية، إلى جانب المجرمين الذين أطلقتهم قوات الدعم السريع من السجون. كما وفّر هؤلاء الرعاة إمدادات ضخمة ومتصلة من الأسلحة النوعية شملت حتى المسيّرات، استُخدمت لارتكاب أسوأ الفظائع، بما في ذلك الإبادة الجماعية والتطهير العرقي في غرب دارفور والعنف الجنسي واسع النطاق، والتهجير القسري لملايين السودانيين في العاصمة وولايات الجزيرة ودارفور والنيل الأبيض وكردفان. نعم لقد أشار المسؤولان إلى دور الرعاة الخارجيين في الحرب، لكنهما قلبا الحقيقة رأسا على عقب، فالدعم الإماراتي لمليشيا الدعم السريع الإرهابية، والذي يشمل كل أنواع الأسلحة وجلب المرتزقة والتمويل والإسناد السياسي والدعائي، هو العامل الأساسي لاستمرار الحرب كل هذه الفترة. ويكفي الاطّلاع على تقرير فريق خبراء الأمم المتحدة المستقل لمراقبة تنفيذ قرار مجلس الأمن 1591، في يناير/ كانون الثاني الماضي، إذ يورد تفاصيل الإمدادات العسكرية من دولة الإمارات للمليشيا عبر الحدود مع تشاد، دعك من الرصد الموثق وصور الأقمار الصناعية لرحلات الشحن من المطارات الإماراتية إلى مطاري أم جرس وأبشي التشاديين، والتي بلغت حتى يناير/ كانون الثاني من هذا العام 122 رحلة. وقد تناولت الصحافة العالمية ذلك مرارا، وتحدّث عنه مسؤولون ومشرّعون في الولايات المتحدة. بينما ظلّ الاتحاد الأوروبي صامتا تماما مع أن هذا هو أهم عامل منفرد لاستمرار الحرب. لقد اكتفى الكاتبان بجملة واحدة عن «نفوذ مباشر تتمتّع به الإمارات لدى قوات الدعم السريع يجب أن تستخدمه لإنهاء الحرب». وهذا تبسيط مخلّ وغير مسؤول يرقى إلى درجة تزييف الحقيقة.

أما الحديث عن دور إيراني فهو من باب ذرّ الرماد في العيون، فليس هناك حاليا تعاون عسكري بين السودان وإيران. وكل ما تم استئناف العلاقات الدبلوماسية بين البلدين، شأن الغالبية العظمى من دول المنطقة. ومع ذلك، وبموجب كل الشرائع والقوانين، من حقّ الجيش الوطني وواجبه الحصول على السلاح والمعدّات التي تمكّنه من الدفاع عن البلاد وشعبها من أي مكان.

... يقول الكاتبان إن الاتحاد الأوروبي يتخذ موقف الحياد من «المتحاربين». لقد ذكر خبراء الأمم المتحدة بخصوص القرار 1591 أن مليشيا الدعم السريع المتمرّدة والمليشيات القبلية المتحالفة معها قتلت ما بين عشرة آلاف إلى 15 ألفاً من المدنيين في مدينة الجنينة، غرب دارفور، وحدها، منذ اندلاع الحرب وحتى نهاية العام الماضي على أسس عرقية. وتوصلت وزارة الخارجية الأميركية في ديسمبر/ كانون الأول 2023 إلى أن المليشيا المتمرّدة ارتكبت جرائم ضد الإنسانية وجرائم تطهير عرقي تذكّر بالإبادة الجماعية. واعتبر مشروع قرار قدّمه الحزبان الرئيسيان في الكونغرس الأميركي، في فبراير/ شباط الماضي، أن أعمال التطهير العرقي التي ترتكبها مليشيا الدعم السريع المتمرّدة والمليشيات المتحالفة معها ضد المجموعات غير العربية في دارفور ترقى إلى الإبادة الجماعية.

من ناحية ثانية، نبّه 25 من مقرّري الأمم المتحدة وخبرائها في مجالات حقوق الإنسان وحماية المرأة والطفل في 17 أغسطس/ آب 2023 إلى «الاستخدام الوحشي وواسع النطاق للاغتصاب والعنف الجنسي ضد النساء من الدعم السريع، واحتجازه مئات النساء حيث يتعرّضن للاستغلال الجنسي والسخرة والاستعباد». وعضدت ذلك تقارير ميدانية تقارير لمنظّمات حقوقية إقليمية ومحلية، مثل «المبادرة الاستراتيجية للنساء بالقرن الأفريقي (صيحة) والمركز الأفريقي لدراسات العدل والسلام ومرصد مشاد لحقوق الإنسان. بينما رصد مجلس الكنائس السوداني 153 حالة اعتداء على الكنائس من مليشيا الدعم السريع المتمرّدة ، دمّرت خلالها 17 كنيسة كليا.

هذه الجرائم التي صمت عنها الاتحاد الأوروبي، باسم الحياد، أسوأ مما عرف عن ممارسات بوكو حرام وجيش الرب الأوغندي، وتُماثل ما ارتكبه تنظيم داعش. فهل معها حياد؟ وهل يملك من يتبنّى الحياد تجاه الطرف الذي يرتكبها أي سلطة أخلاقية لوعظ الآخرين عن القيم الإنسانية؟. وفي المقابل، القوات المسلحة السودانية جيش وطني عريق، عمره مائة عام، ساهم في القضاء على الفاشية والنازية بمشاركته في الحرب العالمية الثانية، وتحرير عدد من دول الجوار من الفاشية، وتأسيس جيوش بعض الدول الأفريقية والعربية عقب استقلالها، فضلا عن مشاركته في عمليات السلام الدولية. جيش مهني يعرف ويطبّق القانون الدولي الإنساني الدولي وقواعد الاشتباك المعروفة عالميا، فعندما يوضع هذا الجيش، على قدم المساواة مع مليشيا من المرتزقة متعددي الجنسيات، ومع الأخذ في الاعتبار موقع السودان الجيوسياسي بالغ الأهمية، أليس ذلك تشجيعا للإرهاب والفوضى مما يحذّر منه المقال؟

ختاماً، أكّدت الحكومة السودانية غير مرّة أن الالتزام بمخرجات منبر جدّة هي السبيل للتصدّي للأزمة الإنسانية، والتمهيد للسلام، مع الوفاء بالتعهّدات التي قدّمها المانحون في المؤتمر الدولي للمساعدات الإنسانية للسودان في 18 يونيو/ حزيران 2023 في جنيف. كما لا بد أن يترافق ذلك مع إلزام رعاة المليشيا الإقليميين، وفي مقدمتهم دولة الإمارات، عن التوقف بتزويدها بأسلحة القتل والدمار التي تستخدمها ضد الشعب السوداني.

(وزير الخارجية السوداني المكلف)

> تعود الأسباب الحقيقية للحرب إلى إصرار أطراف خارجية وداخلية على الإبقاء على قوات الدعم السريع المتمرّدة والمحلولة، وتقويتها

> مليشيا الدعم السريع المتمرّدة والمليشيات القبلية المتحالفة معها قتلت ما بين عشرة آلاف إلى 15 ألفاً من المدنيين في مدينة الجنينة

البعد الإنساني الانفتاحي في شخصية يوسف سلامة

عبد الباسط سيدا

انضمّ عدة أساتذة ومحاضرين جدد إلى قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية في كليّة الآداب بجامعة دمشق في الثمانينيات. ترك اثنان منهم أثراً خاصاً، وانطباعاً إيجابياً لافتاً لدى الطلبة والأساتذة معاً. ولم يكن من السهل في ذلك الحين أن ينال أحدهم اعترافاً بأهليته وقدراته الأكاديمية في مواجهة أسماء كبيرة متميّزة كانت تنتمي إلى الأسر الأرستقراطية المعروفة في سورية، وهي الأسر التي استطاعت، بفضل إمكاناتها وعلاقاتها، إرسال أبنائها إلى الجامعات الأوروبية والأميركية. هذا إلى جانب أساتذة ممن كانوا قد حصلوا، بناء على انتماءاتهم السياسية، على منح دراسية في دول اشتراكية أو عربية، على سبيل المثال عادل العوا، وبديع الكسم، وصادق جلال العظم، وعبد الكريم اليافي، وأسعد عربي درقاوي، وغانم هنا، وجوليت عويشق، ونايف بللوز، وحامد خليل، وطيّب تيزيني، وخضر زكريا، وأحمد درغام، وبكري علاء الدين. والأستاذان المعنيان هنا هما الفلسطينيان السوريّان: أحمد برقاوي ويوسف سلامة. بدأ برقاوي العمل في القسم قبل يوسف. أظنّ أنّه بدأه في أوائل ثمانينيات القرن المنصرم، بينما بدأ يوسف في أواخر العقد نفسه. وسرعان ما أصبحا من الأسماء المحترمة علمياً وشخصياً وإنسانياً، فقد تميّزا بنشاط حيوي من جهة بناء العلاقات، والمشاركة في الندوات والفعّاليات المعرفية. ولم يشعرا، ولم نشعر، في يوم ما بغربتهما عن المجتمع السوري، بل كنّا، وما زلنا، نتعامل معهما بوصفهما سوريّين يهتمان بالقضايا السورية، ويعلنان عن المواقف الجريئة من جهة نقد السلبيات والدعوة إلى التغيير في مرحلة حكم حافظ الأسد نفسه، وحتى الدعوة إلى إعادة النظر في المادة الثامنة من الدستور في مرحلة حكم بشّار الأسد، وهي الدعوة التي سبق إليها الراحل الكبير يوسف سلامة غيره. تعرّفت إلى أحمد برقاوي عبر صديق موريتاني عزيز مشترك، هو الراحل محمد البخاري، وتحوّلت العلاقة إلى صداقة مستمرّة. كان برقاوي عضو اللجنة التي ناقشت رسالتي في الماجستير، إلى جانب الراحلين صادق جلال العظم وطيّب تيزيني، في عام 1983، وكان عنوانها: «فكر زكي نجيب محمود الفلسفي». أمّا العلاقة مع الراحل يوسف سلامة فكانت لا تزال في بداياتها في خريف 1991 (حصلت فيه على الدكتوراه وغادرت فيه سورية إلى ليبيا للتدريس هناك، ثم إلى السويد عام 1994). بدأ سلامة التدريس في القسم بينما كنت أستعدّ للانتهاء من أطروحتي في الدكتوراه «من الوعي الأسطوري إلى التفكير الفلسفي النظري: بلاد ما بين النهرين تحديداً». وقد كنت أقضي معظم وقتي في ذلك الحين في عاموداً، حيث كنت أراجع الأطروحة. وفي الأثناء، كنت أتابع أخبار سلامة الذي كان يعتبر اسماً وازناً ضمن أعضاء هيئة التدريس. وكم كانت سعادتي كبيرة حينما وجدْته جالساً في مقدمة الحضور أثناء مناقشة أطروحتي في صيف عام 1991.

أكمل الدكتور يوسف دراساته العليا في جامعة القاهرة بإشراف كلّ من زكريا إبراهيم في مرحلة الماجستير، وكان عنوان أطروحته: «المنطق عند أدموند هوسرل» (1975)، وحسن حنفي في الدكتوراه، وكان عنوان الأطروحة: «السلب واليوتوبيا: دراسة في هيغل وماركيوز» (1987). وفي ظروف الانفجار الكبير الذي شهده المجتمع السوري نتيجة الثورة الشعبية العارمة التي انطلقت في ربيع 2011، غادر سلامة سورية، مثل كثيرين غيره من الأساتذة والباحثين، وغيرهم من أصحاب الاختصاصات والخبرات، نتيجة رفض ما كان يجري، والالتزام بالتطلّعات المشروعة للشعب السوري. وكان استقراره في مدينة مالمو بالسويد، وقد أخبرني بذلك الصديق يان هينيغسون، مدير المعهد السويدي في الإسكندرية سابقاً. وكان الخبر بالنسبة لي من الأخبار السارّة في عالمنا المتخم راهناً بكلّ المنغّصات والأخبار المؤلمة.

وشاءت مصادفة جميلة أن نلتقي لاحقاً في برلين للمشاركة في فعّالية نظّمها صالون هنانو (مركز حرمون للدراسات المعاصرة)، عن المسألة الكردية في صيف عام 2016. وكانت المناسبة فرصة سعيدة للالتقاء بمجموعة من الأصدقاء بعد سنوات من الفراق. كما مكّنتني الفرصة عينها من التعرّف إلى مجموعة من الأعزاء ممن كنت قد سمعت بأسمائهم أو قرأت لهم، وتابعت أخبارهم من دون أن أحظى باللقاء معهم. ولأول مرّة عرفت سلامة عن قرب، وتناقشنا في جملة مسائل تخصّ الشأن السوري، منها مسائل ثقافية فكرية وأخرى مجتمعية سياسية. واتفقنا على استمرار اللقاءات؛ وهذا ما كان، من خلال العمل المشترك ضمن هيئة تحرير مجلّة قلمون التي اقترح سلامة أن أكون عضواً في أسرتها إلى جانت نخبة من الأساتذة والباحثين الأفاضل. وكان العدد الأول في مايو/ أيار 2017، مخصّصاً لفكر أستاذي الراحل صادق جلال العظم. وأصرّ سلامة بمنطقه العقلاني المُقنع المعهود أن يكون ملف العدد الثاني، في أغسطس/ آب 2017، مخصّصاً لتاريخ الكرد وثقافتهم، والذي شارك فيه عدة كُتّاب وباحثين أكراد وعرب. وكان اهتمام سلامة بالعدد لافتاً، إذ حرص على متابعة أدقّ التفاصيل، يتابع الكُتّاب من دون كلل، ويحثّهم على إنجاز الأوراق البحثية في الوقت المخصّص. يقترح عليهم الفِكَر، ويساعدهم بخبرته على تجاوز العثرات. يفعل ذلك كلّه من دون أن يقيد حرّية الباحث، بل كان يشدّد على ضرورة إعطاء الباحثين كامل الحرّية، وإتاحة المجال أمامهم ليعبّروا عن أفكارهم كما يرغبون. وقبل صدور العدد، اقترح عليّ بكلّ ودّ أن أكتب كلمة العدد، لكنّي اعتذرت، مبيناً تقديري للاقتراح الأخوي، وكانت حجتي أنّ من الضروري الالتزام بقواعد المهنة، فكلمة العدد يكتبها رئيس التحرير لا غيره.

وقرّرت هيئة التحرير تخصيص ملفّ في المجلّة للسريان السوريين، بعنوان: «السوريون السريان قديماً وراهناً: التاريخ، الثقافة، الدور» (العدد 18، يناير/ كانون الثاني 2022)، وكُلّفت من هيئة التحرير بكتابة الورقة الخلفية ومحاور الملفّ، فقبلت بكلّ سرور، ولكنّي اعتذرت مرّة أخرى عن كتابة كلمة العدد، تاركاً المهمة لرئيس التحرير. وتكرّر الأمر مع كلمة العدد 22 (يناير، 2023)، الذي تضمّن ملفّ: «السوريون والتحدّيات المعيشية بعد 11 عاماً من الحرب والتمزّق»، الذي كتبت ورقته الخلفية ومحاوره. واستمرت رحلتي مع يوسف سلامة ضمن هيئة التحرير على مدى ست سنوات، أصدرنا خلالها 22 عدداً. وفي الأثناء، كلّفني سلامة بكتابة بحث عن أستاذي طيّب تيزيني، ليكون إلى جانب أبحاث أخرى تناولت كوكبة من أساتذة الفلسفة في سورية، وصدرت الأبحاث ضمن كتاب من إعداد كلّ من يوسف سلامة ومشير باسيل عون، تحت عنوان: «الفكر الفلسفي المعاصر في سورية» (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2020)، الأمر الذي كان موضع فرحي وتقديري.

ما لاحظته من خلال العمل مع سلامة، ومن الحوارات بيننا، أنّه كان سورياً بصدق إلى جانب فلسطينيّته، يحرص على تكريم المفكّرين والمبدعين السوريين من خلال تخصيص ملفّات المجلّة لتناول إنتاجهم وأفكارهم. منهم صادق العظم، وطيّب تيزيني، وجورج طرابيشي، وزكريا تامر. كما كان يعطي أهمّية خاصة للجوانب الثقافية السورية المشتركة. ومن بين ما اتسم به، إلى جانب دائرة معارفه الواسعة، ودقّته الفلسفية، تواضعه الأصيل، وأدبه النبيل، وصبره المتواصل في ميدان المتابعة، وكان ذلك كله يحول بيني وبين تقديم الاستقالة من هيئة التحرير بفعل ظروفي الخاصة، وانشغالي بالأمور العامة. ولكني في نهاية الأمر اضطررت لاتخاذ القرار الصعب، وقدّمت الاستقالة (وكان سلامة قد رفضها)، من هيئة التحرير في صيف 2023، ولجأت هذه المرّة إلى تكتيك آخر، إذا صحّ التعبير، فقد أعلنت عن استقالتي عبر رسالة وجهتها إلى رئيس هيئة التحرير وجميع أعضائها، مع إعطاء وعد (ملتزم به) بمتابعة التعاون كتابة وتحكيماً ضمن حدود الإمكان. تواصلت مع الدكتور سلامة، قبل وفاته بأيام، للحديث بشأن بحث كلّفني به ليكون ضمن ملف الآثار، في العدد 27 (إبريل/ نيسان 2024). وعرفت منه أنّه أجرى فحوصات نتيجة معاناته من المرض، ولم يذكر لي التفاصيل، ونظراً إلى حساسية مثل هذه المواضيع لم أسأل عن طبيعة تلك الفحوصات أو نوعية المرض. وكان خبر وفاته بالنسبة لي مفاجئاً وأليماً، ولم أتمكّن بكلّ أسف من المشاركة في مراسم جنازته بسبب ظروفي الصحّية، وضيق الوقت، وبُعدِ المسافة. ومع تحسّن الصحّة توجّهت إلى مدينة مالمو التي تبعد عن إبسالا، حيث أسكن، نحو 700 كم، لأقدّم واجب العزاء لأسرته الكريمة.

لقد غادر يوسف سلامة دنيانا، ولكنّه ترك إرثاً علمياً معرفياً غنياً، وسجلاً ناصعاً في ميدان الاهتمام بالشأن العام من دون أن ينخرط في منغّصات العمل الحزبي اليومي وأوجاعه ومآزقه المزعجة. وتمكّن من إعداد كوكبة من الطلبة المتميّزين، وتمتع بسمعة طيّبة. وخلّف سليم وقاسم ورنيم، ليكونوا خيمة تقاوم عواصف الهجرات والإخفاقات والنكبات، خيمة عمادها سيدة فاضلة وقفت إلى جانب زوجها في أصعب الظروف بوفاء، وأثبتت بصبرها وتفاؤلها وإخلاصها لزوجها وأولادها وبيتها وأهلها أنّ الإنسانية، رغم كلّ شيء، ما زالت بخير. رحم الله يوسف سلامة، وألهم أسرته وذويه وطلبته ومحبيه الصبر.

(رئيس سابق للمجلس الوطني السوري)

> كان يوسف سلامة سوريّاً بصدق إلى جانب فلسطينيته، يحرص على تكريم المفكّرين والمبدعين السوريين من خلال تخصيص ملفّات مجلّة قلمون لتناول إنتاجهم.

> أعطى أهمّية خاصة للجوانب الثقافية السورية المشتركة. واتسم إلى جانب دائرة معارفه الواسعة، ودقّته الفلسفية، بتواضعه الأصيل وأدبه النبيل

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير معن البياري ■ مدير التحرير ارنست خوري ■ المدير الفني إميل منعم ■ السياسة جمانة فرحات ■ الاقتصاد مصطفى عبد السلام ■ الثقافة نجوان درويش ■ منوعات ليال حداد ■ المجتمع يوسف حاج علي ■ الرياضة نبيل التليلي ■ تحقيقات محمد عزام ■ مراسلون نزار قنديل

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، لندن
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب الدوحة
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600
■ مكتب بيروت
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads